ألفاظ الطبيعة بين ابن اللبانة الداني وابن حمديس الصقلي(1) ×

الأستاذ الدكتور ستار جبار رزيج

خديجة هاشم عنون العوادي

جامعة المثنى / كلية التربية

الخلاصة

شكلت اللغة الشعرية لدى الشاعرين (ابن اللبانة وابن حمديس) عنصراً مهماً استطاع الشاعران توظيف اللغة لخدمة قضية المعتمد (أميراً وشاعراً وأسيراً) في إطار المديح والفخر والرثاء، ولاشك في أنّ هذه اللغة الشعرية تخضع لسمة نفسية خاصة وصلة حية بالتكوين النفسي للشاعرين معاً. فللمعتمد بن عباد –الشاعر الأندلسي والأمير المشهور– ميزته التي يختلف بها عن أقرانه من الشعراء الآخرين الذين تميزت حياتهم السلطوية والأدبية بمزايا خاصة، اختلفت في مضامينها وأسبابها، فهو من جهة كان أميراً واعداً في بلاده وشاعراً وجدانياً في أغراضه، و من جهة أخرى ختمت حياته بالأسر ذليلاً منكسراً فاقداً للشرعية السلطوية التي ضاعت مع ضياع دولته وحكمه. فضلاً عن سمة الإخلاص والتفاني التي طبعت مسيرة ذلك الشاعر المكافح، امتاز (المعتمد) بصلته القوية بمجموعة من الشعراء في مقدمتهم (ابن اللبانة الداني و ابن حمديس الصقلي) وحضور المعتمد في أجواء حياة استثنائية عاشها مؤثراً في الساحة السياسية بارزاً في الوسط الأدبي، ولا غرابة في ذلك فقد ارتبط المعتمد بالشاعرين (ابن اللبانة وابن حمديس) ارتباطاً قوياً أساسه المحبة والاخلاص، وهذا ما كشفته أيام نفي المعتمد وأسره، وما بين

(1) *بحث مستل من رسالة الماجستير الموسومة ب (المعتمد بن عباد موضوعاً شعرياً بين ابن اللبانة الداني وابن حمديس الصقلي موازنة فنية) للطالبة خديجة هاشم عنون العوادي.

حقبة المعتمد الأمير الحاكم وبين اضطهاده وقمع حضوره أسيراً ذليلاً في (أغمات) يتضح الفارق الكبير بين أجواء مرحلتين عاش المعتمد ثانيهما بحضور سلطوي ميت وحضور شعري تميز بنبرة الحزن والمرارة والألم توزعت ملامحه بين الفخر المفتعل وبين تعرية الآخر السلبي.

Abstract

Formed a poetic language to the poets (Ibn al-labana and Ibn Hamdis) an important element could poets employ language service approved the issue of (a prince and a poet and prisoner) in the context of praise and pride and self-pity. but I doubt that this poetic language is subject to special psychological trait live link configuration psychological poets together. Vmatmd Ibn Abbad -ahaar Andalusian and Prince Almshahur- advantage which differs by all his peers from other poets who marked their lives authoritarian and literary special privileges. differed in their content and their causes. one hand. he was a prince. promising in his country and a poet and emotional in his purposes. and on the other hand sealed his life families humiliated Menksra unconscious authoritarian legitimacy that has been lost with the loss of his state and his rule.

ألفاظ الطبيعة

تعد الطبيعة ميداناً رحباً تتيح للشاعر أن يستقي منها ما يعبر به عن مشاعره وخلجات نفسه، و شعر الطبيعة عرفه أحد الباحثين بأنه: «الشعر الذي يمثل الطبيعة وبعض ما اشتملت عليه في جو طبيعي يزيده جمالاً خيال الشاعر، وتتمثل فيه نفسه المرهفة وحبه لها، واستغراقه بمفاتنها»[1] وتشاطر الباحثة ما ذهب إليه الدكتور عبد العزيز عتيق من أنّ شعراء الأندلس لم تكن لهم قصائد مستقلة في الطبيعة حين قال: «قلما يأتي شعر الطبيعة عندهم كغرض قائم بذاته، اللهم إلا في القطع القصار، وعلى هذا فأكثره يأتي ممتزجاً بأغراض أخرى، كالغزل والمدح والخمر»[2]، وحين نتأمل ألفاظ الطبيعة عند الشاعرين نجدها تمثل صوراً رائعة تملؤها الحياة لدقة أسلوبهما وجزالة الألفاظ وجمال المعاني، وإذ عبرت الأرض عن «طبيعة الأندلس الخلابة أفضل تعبيراً لحياة اللهو والمتعة التي من مظاهرها مجالس الأنس والطرب والشراب، فلا غرابة ولا عجب أن ترى الشاعر الأندلسي تواقاً إلى الحرية والتجديد»[3]، فقد أثرت الطبيعة الشاعرين بالصور الشعرية النابضة، مرتبطة بالحالة النفسية للشاعر وتجربته الذاتية التي امتزجت بطاقتها الشعورية، ممتزجاً فيها البعد المادي والمعنوي للألفاظ واقعياً لأنّ الأخير هو الذي يعيد صياغة أحاسيسنا وادراكاتنا وافكارنا[4]، ومن ذلك تصوير الطبيعة الصامتة قول ابن اللبانة واصفاً (روضةً)[5] (الكامل)

يا روضةٌ أضحى النسيمُ لسانها
يصفُ الذي تُخفيه من آراجها
ومنْ اغْتدى وقد اهتدى لطريقةٍ
ما ضلّ من يسعى على منهاجها

فالشاعر في البيتين أعلاه يمزج بين جمال الرياض وخُلق الممدوح ومنهاجه، فكما النسيم يكشف عن رائحتها الطيبة، كذلك من يتبع الممدوح يهتدي لطريقه فلا يضل عن منهاجه، إنَّ حُب الشاعر للطبيعة جعله يتخذ من ألفاظها أداة للتعبير عن مكنوناته، موظفاً (روضة/ نسيم / آراج) ليمنحها معنىً جمالياً بإضفاء بهائها على الممدوح.

وتتشكل لوحة أخرى للروضة وهي ترمز لحياة الشاعر في ظل الممدوح، معبراً عن الأخير بالروضة الغناء إشارة إلى كرمه وعطائه، وذات الشاعر التي وصفها بالطائر الذي يتنقل في تلك الروضة، ومن ذلك قوله[6]: (الطويل)

يوم كحاشية الرداء المعلم
أوفى بسرّ مرة لم تكتمِ
شاهدته وكأنه من روضةٍ
وكأنني من طائرٍ مترنم

وإذا كان الشاعر قد اتخذ من الروضة عنواناً لوصف جمالها ونسيمها و مدخلاً للتعبير عن آماله في ظل الممدوح، باختياره ألفاظاً سهلة، وصور جميلة، فإنّ ابن ابن حمديس لا يقل شأوٍ عنه وقد استطاع أنْ يطوّع لغة شعره بما تنسجم وتجربته

الشعرية الصادقة التي تلونت بالغربة[7] والعذاب من جهة والحب والحنين للوطن والأهل من جهة أخرى، جعلت ألفاظه تتسم بالعذوبة والسلاسة والجمال الموسيقي، لقد فتنت الطبيعة ابن حمديس فأغرق في وصف جمالها، ومن ذلك قوله واصفاً جمال الروض[8]: (الرمل)

في روضةٍ نفحتُها مسكةٌ تُهدى
إلينا في جيوب الرياحْ
كأنما أشجارها مندَلٌ إنْ
لذعتهُ جمرَةُ الشمس فاح
كأنما القطرُ به لؤلؤٌ لم
يجرِ منه ثُقبٌ في نصاح

إنّ المتمعن في الأبيات أعلاه يلحظ دقة ابن حمديس في رسم صورة للروض وأشجارها، لحظة نزول المطر وكأنّ حبات الأخير ك (حبات) الؤلؤ قبل أن توضع في خيط يجمعها، فعبرت الألفاظ والعبارات بصورة جيدة عن فكرة وعاطفة في بناء متكامل منسجم، وهذا ما يتضح في مقطوعة أخرى للشاعر، ومنها قوله[9]: (الطويل)

وما روضةٌ حيّ ثرى أقحوانِها
يضاحكُها في الغيم سنٌ من الضّحّ
كأنّ صَباها للعرانين فتّقَتْ نداها
بنَدٍ فهي طيّبةُ النفح
بأطيبَ من ريًّا لماها لراشفٍ
إذا انتبهتْ في الشرقِ ناظرةُ الصبح

فالشاعر لا يكتفي بالأوصاف المباشرة وإنما يضيف إليها من خياله، مخرجاً إياها بحلة جديدة، فهذه الروضة يضاحكها جمال الأقحوان ونوره، كضوء الشمس الرفيع الذي يخرج من الغيم، كأنّ الغيوم زادت جمالها فخرجت رائحتها الزكية، ذلك لأنّ المنتج «حين يشرع في الكتابة...يتشكل معنى العمل على نحو جديد باستمرار، نتيجة تظافر عنصرين: أفق التوقع الذي يفترضه العمل وأفق التجربة الذي يكمله المتلقي»[10]

وتشع الأزهار بألوانها الساحرة ورائحتها الجميلة التي أصبحت مصدراً لإلهام الشعراء الأندلسيين، فكان لها حضوراً متميزاً في أشعارهما، من ذلك قول ابن اللبانة[11]: (الكامل)

والوردُ تحت الظل فيها مشبه
خداً يذوب من الحياءِ فيفطرُ
وكأنّ نرجسها أصيب بروعتي
فعلاه لون مثلَ لوني أصفرُ
فكأنما الريحان روحي كلما
تتغير الأشياء لا تتغيرُ

فالشاعر هنا يجسد صورة رائعة ترصد جمال الورد و(ذات الشاعر) فتتضمن ألفاظه دلالات توحي بالضعف والذبول، فاللون الأصفر دالاً على حالته، فالورد أكتسب اللون الأصفر من الشاعر، ولكن روحه كالريحان لا تتغير رائحته على امتداد الأيام، فهذه الأبيات تمثل بوحاً يمثل تنفيساً عما كان يحسه في أعماقه من أسى وقلق وحزن، فالشاعر اتخذ من المعتمد معادلاً موضوعياً لشخصه هو، وعكس

بصور متناغمة علاقته بسيده وولي نعمته ابن عباد ؛ ذلك لأنّ الدواعي إذا قامت في النفوس وحرّكت القرائح أُعملت القلوب، وإذا جاشت العقول بمكنون ودائعها، وتظاهرت مكتسبات العلوم وضرورياتها، نبعت المعاني وروّت أخلاقها[12].

وقال يصف زبيباً أسود أُهدي له (13): (البسيط)

أهديتْ لي من بناتِ الكرم فاكهةٌ

كأنّ طيب اللمى من طيبها أشرقا

حبٌّ أتتني به حبُّ القلوبِ وخيلانُ

الخدودِ وأحدقُ المها نسقا

فالشاعر يتغنى بجمال الطبيعة ويتعلق بها، فهذه الفاكهة وإنْ كان لونها اسوداً لكن مذاقها حلوٌ طيب كجمال ولذة الإشراق، وتدل الألفاظ على الهدوء والراحة التي يشعر بها ابن اللبانة، ملقياً نفسه في واحة الطبيعة الرحبة.

ويخلع الشاعر أوصاف الطبيعة على الممدوح، ومن ذلك قوله[14]: (البسيط)

يمكث الزهرُ في الكمام ولكن بعد

مكث الكمام يدنو قطافا

وإذا ما الهلال غاب بغيمٍ

لم يكن ذلك المغيب انكسافا

فعلى الرغم من سهولة ألفاظه وبساطتها ظهرت جلية في معظم أشعاره، لا تغادرها أجواء التفاؤل ويُمني نفسه بخلاص الممدوح – المعتمد- من السجن، عبر ألفاظ حققت جمالية وانسيابية، فكما الزهر يمكث مدة ثم يخرج للحياة، كذلك الهلال الذي يحتجب بالغيم لابد له من ظهور، ولابد من الإشارة هنا إلى أنّ ابن اللبانة لم يكن مكثراً من وصف الرياض و الحدائق والزهور والورود، إلا أبياتاً شعرية قليلة حتى إنها لم تكن مقطوعات تشكل لوحة متكاملة[15].

أما ابن حمديس فيجد في الورود الراحة لذا نجده يلقي نفسه بأحضانها، ومنها قوله[16]: (السريع)

اشربْ على بركة نيلوفرٍ[17]

مُحمرة النّوارِ خضراءِ

كأنما أزهارها أخرجت ألسنة النارِ من الماءِ

الشاعر يستند في وصفه للطبيعة والرياض على مشاعره الصادقة، محافظاً على معجمه الشعري فابن حمديس كلما كانت نفسه مرهفة وأحاسيسه تصدر عن انفعال حقيقي مزج بين الخمرة والطبيعة، فجاءت ألفاظه سلسة واضحة قريبة من المتلقي، ولعلّ من الواضح القول إنّ سمة المزج بين النفس الشعرية من جهة، ومفردات الطبيعة الموصوفة من جهة أخرى، عدّها أحد الباحثين سمة التميز الوحيدة لابن حمديس في وصفه للنيلوفر، إنّ تلك السمة تعدُّ دليلاً يضعف من رأي د. علي محمد سلامة الذي يحد فيه الشاعر الأندلسي عموماً عاجزاً – في أحيان كثيرة – عن أنْ ينفخ في الطبيعة من روحه وأنْ يجعلها مرآة تصوّر أوضاعه النفسية المختلفة وأحاسيسه الوجدانية المتنوعة حيث نجد ابن حمديس يقارن بين غربته شعوراً وإحساساً وغربة

النيلوفر فيجعلهما مشتركين في المستوى نفسه على اختلافهما حقيقة أو مجازاً[18].

ويرسم الشاعر صورة مشرقة لأهل (سرقوسة)، معبراً عن شجاعتهم وقتلهم لأعدائهم، بالزهر الذي دنا وقت ثمره، منها قوله[19]: (الطويل)

رعى ورقُ البيضِ الذي زهرُهُ دمُ
بهم ورقاً عن زهر الروضُ يبسمُ
جبارةُ في الرّوع تعدو جيادُهم بهمْ
فوق ما سحّ الوشيج المُقوَّمُ
تنوءُ بهم في ذُبلِ الخطِّ أنجُمٌ
سحائبها نقعٌ، وأمطارها دمُ

إنّ المتمعن في الأبيات أعلاه يلحظ أنّ ابن حمديس قد أجاد في تعبيره عن الزهر أكثر من ابن اللبانة، وذلك من خلال رسمه لصور فاضت بدقة الوصف وروعة المعاني، فهؤلاء الأبطال كالزهور التي تزخر فيها الروضة، ولكن قتالهم في الحرب لا تخطأ، فهم يعدلون بضرباتهم كل ميل.

ويقف الشاعر أمام (السوسن) مازجاً بين جماله وقوته وصفات الممدوح، ومن ذلك قوله[20]: (الكامل)

عبطتْبه مُهجُ الجبابرة الألى بَصُروا
بكسرى في الزمان وقيصرا
رسبت بلجّته النفوس ولو طفتْ
لحسبتهُ قبْلَ القيامةِ محشرا
وردَ النجيعَ وسوسنٌ جنباته
ثم استقلّ بهنّ ورداً أحمرا

الشاعر في أبياته السابقة نجح في اظهار جمال الأندلس متمثلاً بأنهارها وينابيعها العذبة، وهو ما أكده أحد الباحثين حين قال «من مظاهر بذخ الطبيعة في الأندلس تلك الأنهار الكثيرة والوفيرة الماء السلسة التدفق، تحيي موات الأرض مشرقاً ومغرباً وشمالاً وجنوباً، فترفد الأرض بالخصب والعطاء، وتمر الرياض بالسحر والنماء، وكانت أكبر المدن وأهمها مثل قرطبة وإشبيلية وغرناطة تقع على تلك الأنهار الأمر الذي جعل الأندلسيون يتخذون من ضفافها مراتع لهو واستمتاع... وتمرح مع تياراتها اشرعتهم، وهم في هذه وتلك يعزفون ويغنون الشعر عذباً رقيقاً اخاذاً»[21]، ويرتبط البحر بالحالة النفسية للشاعرين، حيث يرى فيه ابن اللبانة مصدراً للرزق والخير فيشبه الممدوح بالبحر، ومنها قوله[22]: (البسيط)

بحرٌ محبط عهدناه تجيء له
كنقطة الدّارة السبع المحيطاتُ

إنّ الشاعر نقل اللفظ من معناه الحقيقي إلى معنىً مجازي مسبغاً عليه السعة في العطاء، فهو كالنقطة التي تنطلق منها المحيطات السبع، فلا تنتهي ولا تنقص خيراته. كما يصف ابن اللبانة ركوبه للبحر للقاء الممدوح، من ذلك قوله[23]: (الطويل)

قطعت إليكَ البحر استصحب الصّبا
واسلك حيث البرق في حفظه سلكَ
وآمل من ذاك الحجاب رفوعهُ
لعلي بعين الشوق أنْ أتأملك

الشاعر هنا لا ينقل لنا لوحة عن البحر أو لونه أو

تلاطم أمواجه وأثره على نفسه، وإنما جعل منه أداة يصل بها إلى الممدوح، ليُفصح له عن حبه وشوقه، فرؤية الممدوح تخفف عن ابن اللبانة متاعب السفر وهول البحر، ولكن كيف سيخرج الشاعر من غاطس المدح العميق إلى ضفاف نفسه وشواطئها؟ إنه سيعود أدراجه نحو وصف الممدوح من خارجه، من خلال إلصاق المزيد من صور الشجاعة والفروسية في معالجة الأمور والظروف الطارئة بالممدوح بحيث يراه سباقاً بسعيه نحو الغاية القصوى بسرعة بطل وتمكّن مجرَّب ووقار مُجرب.

أما ابن حمديس فيصف البحر من خلال تجربته الحزينة في عبوره وترك وطنه (صقلية)، ومنها قوله [24]: (المتقارب)

وراءك يا بحرُ لي جنةٌ لبستُ
النّعيم بها لا الشقاءُ
وإذا أنا حاولت منها صباحاً
تعرضتَ من دونها لي مساءُ

ومن خلال امعان النظر في البيتين الشعريين أعلاه نجد إنّ انفعال الشاعر تجاه وطنه جعلته يتجاوز الألفاظ والصور البسيطة ليعبر عنها بصورة تباينت معها معالم الوطن المغيب عن الشاعر بإطار فني جميل، ومنها وصفه لوطنه بالجنة دلالة على حالة الحزن التي يعيشها بعيداً عن أرضه، ويرسم صورة تجريدية مبالغاً فيها فهو يمثل اعترافاً صريحاً من الشاعر بالمرارة التي يشعر بها، لبعده عن وطنه مجبراً لا مخيراً، بجعله الهلال زورقاً له في بلوغ وطنه البعيد، فنراه يقول (25): (المتقارب)

فلو أنّني كنتُ أعطى المنى
إذا منع البحر منها اللّقاءُ
ركبتُ الهلال به زورقاً
إلى أنْ أعانق فيها ذُكاءُ

لقد شكلت مفردات الشاعر صورة حية لمعاناته النفسية المتمثلة في بعده عن وطنه وأهله، من خلال صراع مرير حاولت ذات الشاعر تجاوزه، فلم تتمكن وبقيت صورة الوطن راسخة في ذهنه وشعره.

أما (البرق) في شعر ابن اللبانة فيمتزج بصفات الممدوح، ومن ذلك قوله[26]: (الكامل)

برق السماء على الغمام علامةٌ وسنا
الأصباح على النهار دليل
والروض إنْ بعُدت عليك قطوفهُ
وفدتك عنه الريحُ وهي بليل

إن الشاعر يجعل من البرق دلالة أو علامة لسقوط الأمطار والخير، كذلك النور هو دلالة على وجود النهار، وثمار الروض وإنّ بعدت على الممدوح تأتي بها الرياح الباردة، وهي إشارة إلى كرم وعطاء مستمر.

وقد يحمل (البرق) حزن الشاعر وألمه ويبعث في نفسه القلق، ومنها قوله [27]: (الطويل)

بروق الأماني دون لُقياك خُلب
ومشرقٌ أفق لم تلح فيه مَغربُ
عدمتُ مُرادي فيكَ لا الماءُ نافعٌ ولا
الظلُّ ممدودٌ ولا الروضُ مُخصبُ

والذي يبدو لي أنّ حزن الشاعر على

(المعتمد) دفعه إلى إلقاء نفسه في الطبيعة متخذاً من ظواهرها وألفاظها (بروق /مشرق / ظل / روض) متكئاً للتعبير عن قلقه واضطرابه النفسي ؛لأنّ غياب المعتمد شكل انهياراً نفسياً عند ابن اللبانة، فجاءت ألفاظه متنوعه يملئها الحزن والحسرة، وتلك الأشعار تمثل انفعالاً حسياً في التوظيف الإبداعي، من أجل الدفع باتجاه امتلاك المفردة لدلالة مستمدة مما تثيره في النفس من ايحاءات وتداعيات، وتستقر هذه الدلالة في «الرمز اللغوي القادر على امتلاك الذات والمتلقي بطريقة اظهار النتاج الخطابي والتلاحم بين مستويات اللغة، ومضامينها الفكرية والجمالية»[28] إنّ لجوء ابن اللبانة إلى توظيف الألفاظ المملوءة حزناً وحسرة، سببه يأس الشاعر وقنوطه لأننا لا نتوقع من شعر قيل بعد ضياع الوطن أنْ تخرج أجواؤه عن تصوير ذلك الإحساس، وتلك المشاعر، ذلك لأنّ كل العناصر الشعورية والذهنية، وفي مقدمتها المشاعر والأحاسيس والأفكار التي تتحول في الخطاب الجديد، وخصوصاً المملوء حزناً وحسرة إلى عناصر لغوية راسخة حتى إذا تقوّض البناء اللغوي في الخطاب تقوّض معه الكيان النفسي والشعور المتضمن فيه والقائم على مفردة لغوية كانت المهاد الأول للخطاب النفسي ومرتكزاً قائماً يحقق آخراً جديداً وقارئاً له القدرة على قراءة المنبهات الأسلوبية اللغوية وربطها نفسياً وفكرياً بالخطاب الأصلي، وقراءة الخطابين (خطاب الإمارة والحرية) وخطاب بالضياع والأسر) ومن ثم قراءة الخطاب الجديد، الخطاب بإطاره المرجعي، وعلامة الخطاب بواقعه الآني، وفاعليته اللغوية الحية التي لا تحمل معاني متعلقة نهائية، بل تبقي الخطاب مفتوحاً على الاضاءة الحقيقية في تعداد القراءة، و توليد المعاني اللامتناهية[29].

ويوظف ابن حمديس (البرق /الرعد) في شعره، ومن ذلك وصفه للشيب ويذكر تشوقه إلى موطنه بصقلية[30]: (المتقارب)

سرتُ وحياها شقيقُ الحياة
على ميّت الأرض تُبكي السماءَ
فمن صوتِ رعدٍ يسوق السحاب
كما يُسمعُ الفحلُ شولاً رغاءَ
وتُشعِلُ في جانبيها البروقُ
بريقَ السيوف تُهزّ انتضاء

إنّ رقة الألفاظ وسهولتها مكنت الشاعر من التعبير عن تجربته وصراعه المرير مع الغربة، متخذاً من صوت الرعد الذي يحمل السحاب وضوء البرق مدخلاً ليصف شجاعة قومه، لأنّ لمعة البرق في السماء تشبه لمعة السيوف في القتال، من هنا نجد د. أحمد الشايب يدعو إلى أنْ تكون كلمات الشعر «منتقاة غير مبتذلة، تدل بجرسها ومعناها على ما تصور من أصوات و ألوان ونزاعات نفسية»[31].

ويقدم الشاعر في موضع آخر (سحابة)، بلغة واضحة وألفاظ سهلة، ومنها قوله[32]: (الكامل)

ومُديمةٍ لمعَ البروقِ كأنما هزَّت

من البيض الصفاح متونا
وسرتْ بها الرّيحُ فكم يدٍ
كانتْ لها عند الرّياض يمينا
صرَختْ بصوتِ الرّعد صرخة
حامل ملأتْ بها الليلَ البهيمَ أنينا
حتى إذا ضاقتْ بمضمر حملها
ألقتْ بحجرِ الأرض منه جنينا

لقد حرص ابن حمديس في اختياره لألفاظ حققت جمالية فنية وموضوعية، فقد وصف الشاعر السحابة بصورة امرأة، فهذه السحابة يلمع برقها مثل السيوف في المعركة، وشدة صوتها ك (صرخة) المرأة في الليل المعتم، حتى تُلقي بغيثها على الأرض، فرسم الأخير صورة رائعة لمظهر من مظاهر الطبيعة.

أما الطبيعة المتحركة فشكلت حضوراً متميزاً لدى الشاعرين، ولم تكن هذه خصيصة امتاز بها الشاعران، وإنما هي خاصية عرفت عند شعراء العرب والأندلس، وقد ارتبطت الطبيعة الحية في مختلف الأغراض الشعرية كالمدح والغزل ذلك إنّ شعراء إشبيلية لم تقتصر عنايتهم على وصف الطبيعة الصامتة فحسب، بل كان لهم نشاط واهتمام لجوانبها الناطقة أيضاً[33]، وتشمل الطبيعة (الخيول، الاسد، الطير...).

ويصف ابن اللبانة فرس المعتمد مستخدما الصيغة الصرفية (تفعيل)، ومن ذلك قوله[34]:
(الكامل)

لله طِرفٌ جال بابن محمد
فحوت به حرباؤه التأميلا
لما رأى أنّ الظلام أديمه
أهدى لأربعة الهدى تحجيلا
وكأنما في الردف منه مياسمٌ
تبغي هناك لوجهه تقبيلا

فالشاعر يمدح المعتمد وشجاعته واصفاً أجزاء فرسه، حيث حققت جمالية الألفاظ (تأميلا/ تحجيلا/تقبيلا) تجاوباً نفسياً عند الشاعر، ذلك أنّ الفن في جوهره ليس فهماً للحياة يقف عند حد الرؤية المادية والإشارة العقلية، وإنما هو إلى جانب هذا «حركة في الوجود الخارجي تعقبها هزّة في الوجود الداخلي يتبعها انفعال... وكل هذه النقلات المترابطة تكوّن في مجموعها عملية التذوق التي تمهد الطريق للأداء النفسي»[35] وذلك لأنّ التكوين النفسي الخاص بكل شاعر وخصوصية التجربة الذاتية التي يعانيها تترك أثرها في تشكيل معالم شخصيته، كما إنّ ادراك ابن اللبانة لأهمية الخيول في حياة الممدوح جعلته يتخذ من أوصافها مدخلا للوصول إليه، فقد نالت الخيول «اهتمام الشاعر الأندلسي وحظيت بحرصه وتفاخره بها وبقوتها، وسرعتها ونجابتها»[36]، من هنا فقد عكست لنا أشعار الأندلسيين «حب هؤلاء القوم لهذا الحيوان واهتمامهم به، فضلاً عن ماله من فوائد على مختلف ميادين الحياة وجوانبها المتعددة»[37]، وفي قصيدة أخرى يصف الشاعر المعتمد بن عباد

وركوبه للخيول، قائلاً[38]: (الكامل)

فكأنما الأصباح تحتكَ أشقرُ

وكأنما الاظلام تحتكَ أدهمُ

والخيلُ كانت تستريح من السُرى

لو لم يكن فوق البسيطة مجرمُ

فالشاعر هنا لم ينظر إلى قوة الخيل أو جمالها بقدر اهتمامه باختيار الألفاظ التي تلائم غرضه وهو المديح، وقد عبر ابن اللبانة عما في داخله من مشاعر صادقة تجاه الممدوح، بألفاظ سهلة محافظاً على لغته من الرديء«فلقد تحوّلت علاقته بالمعتمد من علاقة مادح بممدوح أو سيد بمسود إلى علاقة صداقة وأخوة، وهكذا أصبح الشعر المدحي لوناً من ألوان التعبير الشعري الصحيح، واكتملت فيه عناصر التجربة الوجدانية وما يرافقها من صدق في الإحساس، واخلاص في التعبير»[39].

أما ابن حمديس فيصف جمال الخيول التي أُهديت للممدوح، قائلاً[40]: (الكامل)

غُـرٌّ محجَّلةٌ تكاملَ خلقها

بمجانس من حسنها ومطابقِ

وكأنما حيّتْ عُلاكَ وجوهها

فأسال فيها الصبح بيضَ طرائقِ

من كلّ طِرفٍ يستطير كطَرفه

جَرياً فوثبته غِلابُ السابقِ

الشاعر عبر عن وصفه لجمال الخيل على دقة التعبير وصدق العاطفة تجاه الممدوح، فمزج بين الطبيعة و الممدوح في السمو والعلا، فحققت الألفاظ (محجلة / حييت / جرياً) تجاوباً مع انفعاله ونضجاً في منجزه الشعري، وهذا ما يتطابق تماماً مع رؤى اغلب النقاد حيث أشاروا إلى أهمية الألفاظ والتراكيب اللغوية في انضاج النص الشعري، والوصول به إلى صورة تكاملية، كما إنّ ابن حمديس حينما وصف الخيل متغزلاً بجمالها ومحاسنها، ومضفياً عليها أوصاف الحب والطبيعة[41]

ويتكرر استعمال الشاعر للفظ (الخيل) واصفاً سرعة هذه الخيل في قطع المسافات للوصول إلى الأعداء، ومنها قوله[42]: (الكامل)

بالخيلِ تحت الليلِ يُسرجُ حولها

في كلّ ذابلةٍ سنانٌ أزهرُ

وتلوكُ من فقد القضيم شكائماً

تُنهى بها أفواههنَّ وتؤمرُ

عركتَ أديم الأرضِ تحت حوافرٍ

صَخرُ البلادِ بوطئهنّ مسخّرُ

لقد حرص الشاعر على إبراز شجاعة الممدوح وإقدامه في سوح القتال ؛ ليجسد تشكيل ذاته بتحديدات تشخيصية تظهر التمزق في صوته الذي لا يتوازى مع شخصيته، حين تسرد همومها الذاتية، ورؤيتها الشعرية في حالة اندهاش إزاء الواقع[43]، كما نلحظ ألفاظه و قد عبرت عن معاناة ابن حمديس الدائمة في البحث عن وطنه، فهو يرى في المعتمد ودفاعه عن بلاده

صورة البطل الحامي للإسلام والناس، فالممدوح لا ينام في الليل لأنّ خيوله تسرج استعداداً للقتال، ووضعت على أفواهها لجام من حديد، لزجرها وأمرها بالمسير، فشعر الشاعر هنا يمثل تلك الدفقة الشعورية العالية التي امتلأت برمز واحد يعكسه شخص المعتمد الذي يشد كل أجزاء أبياته، وهو يضفي وحدة على تلك الأبيات وحدة نفسية وتماسكاً فنياً. إذْ لم تخرج عن معالجة قضية واحدة شغلت الشاعر، وأقضت عليه مضجعه، وهذا ليس غريباً فلقد «قويت العلاقة بين الأثنين وجمعت بينهما المحبة والصداقة والإعجاب، فكان الشاعر يحفظ في قلبه المودة والامتنان والشكر للأمير، وهذه القوى الروحية بين الشاعر والأمير أوجدت لدى الأول تعلقاً قوياً بالمعتمد وإحساساً عميقاً بالتقدير والإخلاص»[44]، وهذا الإحساس تحوّل إلى «شعور داخلي لدى الشاعر وأصبح جزءً لا يتجزأ من وجوده بل هو وجوده كله»[45].

أما (الإبل) فقد حظيت بالاهتمام عند الشعراء كونها وسيلة مهمة للسفر وخاصة للمسافات البعيدة الصحراوية، لذا «وصف الشاعر الأندلسي الإبل وعني بها شأنه في عنايته بوصف الحيوانات الأخرى من اصناف الطبيعة الحية ذات الصلة المباشرة بحياته والنفع الأكيد له مقيماً ومرتحلاً»[46]، ولكنها لم تحظ بالاهتمام عند ابن اللبانة إلا في موضعين، وذلك بعد ضياع الوطن وأسر المعتمد، حيث خلع الشاعر أوصاف الإبل على السفينة التي أقلت المعتمد وأهله، ومن ذلك قوله [47]: (البسيط)

سارت سفائنهم والنوح يصحبها
كأنها إبل يحدو بها الحادي

الشاعر جعل من ألفاظ الطبيعة الحية (الإبل) مشاركة إياه في حزنه وألمه على فقدهم، وقد صور الشاعر إحساسه بصياغة فنية حين وصف حال السفن التي حواها النوح والبكاء، كالإبل التي يسيرها الحادي.

ويقف ابن اللبانة في مشهد وداع المعتمد في المنفى، مستذكراً أيامه التي عاشها في ظل الأخير، مشيداً بنعمه قديماً وحديثاً متذكراً الماضي الجميل الذي جمعه بالمعتمد، واثقاً من أنّ الشاعر إنما «يغذي عواطفه وعقله على مآثر الماضي»[48]، ومن ذلك قوله[49]: (الكامل)

أُمليَّ النُعمى قديماً ومثلها
حديثاً، وأحداثُ الزمان عظامُ
لأجلستني حتى اتكأتُ ولم
تزل يُدِلُ على الموتى الكريم غلامُ
عسى عند حمل العيس رحلي في
غدٍ يُهيأ من زادي لديك طعامُ

ابن اللبانة يُلقي ما جرى من أحداث جِسام على الزمان لأنه كغيره من الشعراء يعطي للزمن دلالتيه الموضوعية والذاتية «فهو يعيش الزمن الموضوعي الذي تحدده الساعات و التقاويم، كما يعيش الزمن الذاتي الذي تحدده مشاعره النفسية التي يحسها، وحالته الجسدية التي يشعر بها»[50]،

وهو في ضوء ذلك يعيش زمنين: أحدهما يتحدد بالساعات وزوال الليل والنهار، والآخر يتجسد أثره في نفسية الشاعر فكل تلك لحظات عاشها الشاعر فامتزجت في إحساسه بالزمن، لأنّ الشاعر بأسلوبه هذا كان يدرك بأنه لا يمكن «احياء الماضي إلا بتقييده بموضوعه شعورية حاضره بالضرورة»[51]، فصراع الشاعر الأندلسي مع الزمن هو صراع مستمر وموقفه من الزمن موقفاً ثابتاً، ويؤمن ايماناً راسخاً بأنّ الزمن هو المنتصر في نهاية الأمر، من هنا فقد عبّر الشاعر عن حبه لبني عباد ب (الزاد) فتمنى لو أنه تهيأ من قبل، حيث يقدم الشاعر عاطفته الصادقة بألفاظ سهلة و بلغة أقرب إلى لغة الحياة اليومية.

أما (الإبل) عند ابن حمديس فحظيت باهتمام كبير لديه، كونها تمثل مدخلاً لقصائده المدحية، ومنها قوله (52): (الكامل)

كم من فلاةٍ جُبتُها بنجيبةٍ
عن منسمٍ دائمٍ وخَطمٍ مزبدِ
أبقى الجزيلُ لها جميلَ ثنائه
في العيس موصولاً بقطع الفدفد

الشاعر يقطع الصحراء بالإبل، بخف اقدامها وأنفها يسيل كأنه يخرج زبد، ليصل إلى الممدوح بعد قطع مسافات طويلة على ظهور الإبل، لقد حرص الشاعر على «وصف الناقة بالقوة والسرعة وشدة التحمل مهما كانت الظروف قاسية»[52]. ويرى ابن حمديس إنّ الإبل تُعد لأمرٍ مهم، منها قوله[53]: (الطويل)

لأمرٍ طويلٍ نُزجي العرامسا
وتطوي بنا أخفافهنّ البسابسا
وتذعرُ بالبيداء عيْناً شوارداً
تُذكّرُ بالأحداقِ عيناً أوانسا
عذارى ترى الحسنَ البديعَ مُطابقاً
لأنواعها في خلقه ومجانسا

يبدو أنّ الحالة النفسية للشاعر كانت سبباً في توجهه إلى (الإبل) فحركتها في المسير، جعلت صورة الوطن المغيب يظهر أمام ابن حمديس فحركت مشاعر مكبوتة وآلام حقيقية عاشها، في تنقلاته بعيداً عن وطنه، لدرجة إنّ من يتمعن في ألفاظ الشاعر، يجدها في بعض الأحيان جزلة ولا يمكن حل طلاسمها إلا بالرجوع إلى المعجم.

الخاتمة والنتائج

من أهم النتائج التي توصلت إليها الباحثة هي:

1 – أنّ الذوق اللغوي الرفيع في لغة الشاعرين كان سبباً في تقبل شعرهما، لأنّ لغتهما كانت رفيعة، فلم تكن متكلفة، ولم تكن لغة عربية حوشية، بل كانت لغة رصينة.

2 – جاءت لغتهما ايحائية بسيطة مفعمة بالإيقاع الموسيقي المعبر والصور الفنية المؤثرة فضلاً عن التماسك العضوي الواضح ولكن إنْ تجردت اللغة من الايحاء مع بساطة مفرداتها فلا مكان لها في إطار الأنموذج الفني الأرقى شعرياً.

3 – في بعض قصائدهما قبل السقوط غلبت الصبغة النثرية أو ما يعرف نقدياً بالطابع التقريري ومرد ذلك إلى وضوح الأفكار والمضامين المطروحة أولاً، وشيوع النزعة الخطابية بآلياتها الفنية المعروفة من أمر ونهي واستفهام ونداء ثانياً، فضلاً عن سعة الاستعمال الشعري لكثير من الألفاظ المتداولة اجتماعياً والتي يبدو البعض منها غير مستأنس موسيقياً أو لفظياً، وكل ذلك يجعل بالإمكان الانتقال بالمضامين الشعرية إلى الجو النثري إذا لا يشكل الإطار العروضي الذي سيقت فيه آلية فنية مستقلة ذات طابع ايحائي قيدها عروضي محض يدخل المنجز في إطار الشعر شكلاً وجوهراً.

الهوامش

1 - الطبيعة في الشعر الأندلسي، د. جودت الركابي، ط2، مكتبة أطلس، دمشق، 1970م:8.

2 - الأدب العربي في الأندلس، د. علي محمد سلامة، ط1، الدار العربية للموسوعات، 1989م:295.

3 - وصف الطبيعة في الشعر الأندلسي (قراءة وعرض)، د. ستار جبار رزيج، (بحث منشور) مجلة أبحاث البصرة (العلوم الإنسانية)، جامعة البصرة، كلية التربية، مجلد 36، عدد 1، 2011م:17.

4 - يُنظر جماليات الصورة الفنية، ميخائيل اوفيانيكوف، ترجمة رضا ظاهر، دار الهمداني، عدن، 1984م:13-1.

5 - ديوان ابن اللبانة الداني (مجموع شعره) جمع وتحقيق د. محمد مجيد السعيد، ط2، دار الراية للنشر والتوزيع، المملكة الأردنية الهاشمية، 2008م:42.

6 - المصدر نفسه: 132.

7 - الغربة: تعني البعد عن الوطن والأهل، على حين يتسع معنى (الاغتراب) حتى يشمل البعد عن العالم، بل البعد عن الذات. ويرى البعض إنّ الكلمتين مترادفتان، وتحملان المعنى نفسه، إلا إنّ مصطلح (الاغتراب) أكثر شيوعاً في كتابات الفلاسفة والمفكرين، وفي تسمية مؤلفاتهم، بينما يستعمل المصطلحان في الدراسات الأدبية بنسبة واحدة، وعليه نجد الشاعر غريباً عن وطنه، ومغترباً عن مجتمعه وذاته، متقوقعاً على نفسه،

يحس بالوحشة والانعزال عن الناس. يُنظر: الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس، د. محمد مجيد االسعيد، وزارة الثقافة والاعلام، بغداد، العراق، 1979م: 237-219.

8 - ديوان ابن حمديس الصقلي، تحق د. احسان عباس، دار صادر، بيروت، دار بيروت،1960م:100.

9 - المصدر نفسه:78.

10 - جمالية التلقي من أجل تأويل جديد للنص الأدبي، هانس روبرت ياوس، ترجمة رشيد بجيدو، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2004م:101.

11 - ديوان ابن اللبانة:65.

12 - ينظر: قصائد غُيبت أغراضها في شعر العصر الإسلامي، د. عبد المطلب محمود، بغداد، 2013م:26.

13 - ديوان ابن اللبانة: 97.

14 - المصدر نفسه:94.

15 - يُنظر:شعر ابن اللبانة الداني دراسة وصفية تحليلية، عواطف محمد صالح، (رسالة ماجستير)، جامعة أم القرى، كلية التربية، 1997م:174.

16 - ديوان ابن حمديس:5

17 - جاء في المعجم الوسيط إنّ «اللنيلوفرية و النيوفر: جنس نباتات مائية من الفصيلة النيلوفرية، فيه أنواع تنبت في الأنهار والمناقع وأنواع تزرع في الأحواض لورقها وزهرها» المعجم الوسيط قام باخراج هذه الطبعة:د. ابراهيم راتب وآخرون، دار الدعوة استنبول، تركيا، 1989م:2/967.

18 - يُنظر الأدب العربي في الأن، ط2، دار النهضة العربية، القاهرة، 1975م:130.

19 - ديوان ابن حمديس:312.

20 - المصدر نفسه:235.

21 - الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، د. مصطفى الشكعة، دار العلم للملايين، بيروت، 1979م:309.

22 - ديوان ابن اللبانة الداني:38.

23 - المصدر نفسه:104.

24 - ديوان ابن حمديس:4.

25 - المصدر نفسه:4.

26 - ديوان ابن اللبانة:116.

27 - المصدر نفسه:25.

28 - خطاب الآخر في الشعر العراقي السبعيني التلقي والتأويل، د. علي هاشم طلاب، ط1، دار ومكتبة النصار، بيروت، لبنان، 2015م:117.

29 - يُنظر: أغواء التأويل واستدراج النص الشعري بالتحليل النحوي، د. سعد كموني، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2011م:44-43، وخطاب الأخر في الشعر العراقي السبعيني:118-117.

30 - ديوان ابن حمديس:3.

31 - الأسلوب، د. أحمد الشايب، ط4، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1956م:67.

32 - ديوان ابن حمديس:490.

33 - يُنظر:الشعر في ظل بني عباد، د. محمد مجيد

السعيد، ط1، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، 1972م:122.

34 - ديوان ابن اللبانة:109.

35 - الفن والأدب (بحث جمالي في الأنواع والمدارس الأدبية والفنية، ميشال عاصي، ط3، مؤسسة النوفل، بيروت، 1980م:121.

36 - اتجاهات الشعر الأندلسي في القرن الثالث الهجري:187.

37 - وصف الحيوان في الشعر الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، د. حازم عبد الله خضر، (د.ط)، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1989م:30.

38 - ديوان ابن اللبانة:129.

39 - دفاتر أندلسية في الشعر والنثر والنقد والحضارة والأعـلام، د. يوسف عيد، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس، لبنان، 2006م:26.

40 - ديوان ابن حمديس: 330.

41 - يُنظر:ابن حمديس حياته وشعره، نايف خالد محمد الحسن (رسالة ماجستير) جامعة بغداد، كلية الآداب، 1974م:118.

42 - ديوان ابن حمديس: 196.

43 - يُنظر:جماليات الصورة، جاستون باشلار، ترجمة غـادة الامـام، ط1، التنوير للطباعة، بيروت، لبنان، 2010م:369.

44 - دفاتر أندلسية:26.

45 - المصدر نفسه:27.

46 - وصف الحيوان في الشعر الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، د. حازم عبد الله خضر، (د.ط)، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1989م:58.

47 - ديوان ابن اللبانة:61.

48 - الشعر والتجربة، ارشيبالد مكليش، ترجمة سلمى الخضراء الجيوسي، دار اليقظة العربية، بيروت، 1963م:13.

49 - ديوان ابن اللبانة:131-130.

50 - الزمان والمكان في الشعر الجاهلي، باديس فوغالي، ط1، عالم الكتاب الحديث، عمان، الأردن، 2008م:69.

51 - جدلية الزمن، غاستون باشلار، تحقيق خليل أحمد خليل، ط4، المؤسسة الجامعية، بيروت، 2010م:47.

52 - ديوان ابن حمديس:168.

53 - وصف الحيوان في الشعر الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين:64.

المصادر والمراجع

- الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، د. مصطفى الشكعة، دار العلم للملايين، بيروت، 1979م.
- الأدب العربي في الأندلس، د. علي محمد سلامة، ط1، الدار العربية للموسوعات، 1989م.
- الأسلوب، د. أحمد الشايب، ط4، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1956م.
- ابن حمديس حياته وشعره، نايف خالد محمد الحسن (رسالة ماجستير) جامعة بغداد، كلية الآداب، 1974م.
- أغواء التأويل واستدراج النص الشعري بالتحليل النحوي، د. سعد كموني، ط1، المركز الثقافي

- العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2011م.
- جدلية الزمن، غاستون باشلار، تحقيق خليل أحمد خليل، ط4، المؤسسة الجامعية، بيروت، 2010م.
- جماليات الصورة، جاستون باشلار، ترجمة غادة الامـام، ط1، التنوير للطباعة، بيروت، لبنان، 2010م.
- جمالية التلقي من أجل تأويل جديد للنص الأدبي، هانس روبرت ياوس، ترجمة رشيد بجيدو، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2004م.
- جماليات الصورة الفنية، ميخائيل اوفيانيكوف، ترجمة رضـا ظاهر، دار الهمداني، عدن، 1984م.
- خطاب الآخر في الشعر العراقي السبعيني التلقي والتأويل، د. علي هاشم طلاب، ط1، دار ومكتبة النصار، بيروت، لبنان، 2015م.
- دفاتر أندلسية في الشعر والنثر والنقد والحضارة والأعـلام، د. يوسف عيد، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس، لبنان، 2006م.
- ديـوان ابن حمديس الصقلي، تحق د. احسان عباس، دار صادر، بيروت، دار بيروت،1960م.
- ديوان ابن اللبانة الداني (مجموع شعره) جمع وتحقيق د. محمد مجيد السعيد، ط2، دار الراية للنشر والتوزيع، المملكة الأردنية الهاشمية، 2008م.
- الزمان والمكان في الشعر الجاهلي، باديس فوغالي، ط1، عالم الكتاب الحديث، عمان، الأردن، 2008م.
- شعر ابن اللبانة الداني دراسة وصفية تحليلية، عواطف محمد صالح، (رسالة ماجستير)، جامعة أم القرى، كلية التربية، 1997م.
- الشعر في ظل بني عباد، د. محمد مجيد السعيد، ط1، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، 1972م.
- الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس، د. محمد مجيد االسعيد، وزارة الثقافة والاعلام، بغداد، العراق، 1979م.
- الشعر والتجربة، ارشيبالد مكليش، ترجمة سلمى الخضراء الجيوسي، دار اليقظة العربية، بيروت، 1963م.
- قصائد غُيبت أغراضها فـي شعر العصر الإسـلامـي، د. عبد المطلب محمود، بغداد، 2013م.
- الطبيعة في الشعر الأندلسي، د. جودت الركابي، ط2، مكتبة أطلس، دمشق، 1970م.
- المعجم الوسيط قـام باخراج هـذه الطبعة:د. ابراهيم راتب وآخرون، دار الدعوة استنبول، تركيا، 1989م.
- وصف الحيوان في الشعر الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، د. حازم عبد الله خضر، (د.ط)، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1989م.
- وصف الطبيعة في الشعر الأندلسي (قـراءة وعرض)، د. ستار جبار رزيج، (بحث منشور) مجلة أبحاث البصرة (العلوم الإنسانية)، جامعة البصرة، كلية التربية، مجلد 36، عدد 1، 2011.